المثقف ومدارات الطاغية

بسمة عبد العزيز

مقدمة

يستدعي الحِراك الثوريّ المصريّ الذي بدأ منذ أربعة أعوام تقريبًا، حديثاً متكرراً عن حالِ الفكر والثقافة، ودور المثقفين المصريين، ومواقف الجماعة الثقافية بوجه عام -على اختلاف انتماءات أفرادها- مِن المُتغيرات السياسية المُتلاحِقة. ثمة أزمة مُتعددة المستويات في أداء الجماعة الثقافية المصرية تطرّق إليها كتابٌ ومفكرون كثرٌ خلال الفترة الماضية، وقد طرحت بعض هذه الأزمات تساؤلا جوهريًا حول استقلالية المُثقف المصريّ وانحيازاته بوجه عام.

لقد تبلورت مواقف الجماعة الثقافية مِن خلال بعض المحطات الكبرى المؤثرة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر استدعاء المؤسسة العسكرية إلى المشهد السياسيّ بدءً مِن منتصف عام 2013، ثم إعطاءها شرعية الإدارة والحكم من بعد، دون النظر إلى ما ارتبط بحكمها مِن تراث قمعيّ واستبداديّ في دول شتى. ربما لم يكن انحياز المثقفين الحماسيّ إلى المؤسسة العسكرية سوى تتويج طبيعيّ للارتباك الذي شاب مراحل الحِراك الثوريّ، والذي أشعرهم في إحدى اللحظات وتحديدًا خلال فترة حكم جماعة الإخوان المسلمين، بأنهم إزاء خطرٍ حقيقيّ ووشيك، لا يمسّ فقط حريات الفكر والتعبير بل يمتدُ ليعبث بوجودهم وأمانهم الشخصيّ. كان لخطاب التيارات الدينية حول الأمور المتعلقة بالثقافة والإبداع، ومحاولاتها السيطرة على بعض أدوات العمل الثقافيّ، أثرٌ كبيرٌ في إصابة جموع المثقفين بالخوف، بحيث تولَّدَت لديهم نزعات دفاعية عنيفة، اتسمت لاحقًا بكثير مِن الانفعالية والتشوّش.

لم تنته حال الخوف بانتهاء فترة الحكم الإخوانيّ عن طريق تدَخّل المؤسسة العسكرية بل استمر الشعور بالخطر، مما دفع الجماعة الثقافية إلى اتخاذ موقف داعم وحافز للسلطة السياسية على تدوير آلة القمع مِن جديد. يمكننا الالتفات هنا إلى موقف متناقض فلقد ظهر المثقفون إبان حُكم جماعة الإخوان المسلمين في حال معاداة للسلطة التي بدت عليها إمارات الهشاشة وعدم التماسك والتخبط في كثير من الأحيان، كما لم تكن يدها باطشة بما هو مُعتاد في سنوات ما قبل ثورة يناير 2011، ومع انهيارها وظهورِسلطةٍ مُهيمنة مُسيطرة هي سلطة المؤسسة العسكرية، اختار أغلب هؤلاء المثقفين أن ينتقلوا إلى خانة المؤيدين لها، ولجأوا في سبيلِ دعمها إلى إعلانِ مُعاداتهم للحريات ولكثيرٍ مِن المعايير الأخلاقية، كما راحوا يستهزئون بثُلة المبادئ الحقوقية وأصحابها بدعوى إنهم مثاليون ورومانسيون لا ينتمون إلى الواقع.

مال أغلب المثقفين إلى إعادة بناءِ صورة الإله المستبد العادل، ولم ينتصر منهم إلا قليلٌ لمفاهيمِ الحرية والإنسانية، وفي هذا السياق جرى حَفز الدولة على ارتكابِ العنفِ تجاه مُعارضيها مِن ناحية، وشَحذ الرأي العام لقبول انتهاكاتها وتأييدها ومُباركتها مِن ناحية أخرى، وذلك على أقلام وألسنة كتّابٍ ومثقفين مِن بينهم مَن تفاخروا في السابق بكونهم تقدميين، ومِن بينهم أيضًا أصحاب رؤى كانت تبدو فيما مضى مبنية على أسس العدالة والحرّية والمساواة، وقد تسبب هذا الموقف في إعادة تقييمهم مِن قبل أجيال أصغر عمرًا اصطدمت بتغيراتهم المبدأية المفاجئة.

يقود هذا الموقفُ مباشرة إلى طرح تساؤل رئيس لا يزال محل جدل لا في المجتمع المصري والمجتمعات العربية بل ربما في مجتمعات أخرى أيضًا تجاوزت حقبة التنوير. ذاك التساول هو: أ يُفترضُ بالمثقف أن يقف أمام صنوف القمع والقهر وإن اختلف مع توجهات المقموعين الفكرية، أ يُفتَرض به أن يطمحَ إلى مزيدٍ مِن الحرية، بعيدًا عن مدارات السلطةِ والمستبدّين؟

الحقيقة أنه لا شيء يدفع إلى هذا الاعتقاد سوى الفرضية الحالمة التي تعتبرُ المُثقف مثاليًا بدوره، عادلا، شجاعًا، مُنصفًا، ساعيًا إلى الحقيقة، رافضًا للتزييف والخداع، مكتفيًا بذاته لا باحثًا عما يزيّن صورته، مُعتدًا بما هو عليه لا مُتطلعًا إلى هِبة أو مِنة تأتيه مِن هنا أو هناك. يرى البعض إن هذا الوصف الأسطوريّ لا وجود له على أرض الواقع إلا على هيئة استثناء، وإن القاعدة الثابتة هي خضوع المثقف للأنظمة المستبدة شأنه شأن الآخرين، وهو أمر أظنه طبيعيًا رغم ما يبعثه مِن أسى في النفس.

بين التعريفات

هناك تعريفات لا حصر لها للمثقف؛ فتارة هو كلّ مُتعلّم، وتارة أخرى هو كل مُشتغل بقضايا عامة تتجاوزُ اختصاصَه، وهو أيضًا المُبدع في مجالات الفنون والعلوم، وأخيرًا هو صاحب الرؤي والإسهامات النقدية في المجتمع، وتُشير كلمة (ثقف) في معجم "لسان العرب" إلى كل مَن جدّد وسوّى[1]. ما يلفت النظر حقًا بين التعريفات المتنوعة هو نشأة واستخدام مُصطلح "المُثقف" في سياقِها العربيّ والإسلاميّ، حيث يقول "الجابريّ": **(كان الأمراء هم العلماء، كان الصحابة أمراء وعلماء في الوقت نفسه، يحكمون بالشرع ويشرّعون للحكم. ثم حصل خلاف حول الحكم، فاستأثر الأمراء بالسلطة وتمسك العلماء بالرأي، وحصل استبداد بالأمر أدى إلى استقلال الرأي، فانفصل العلم والثقافة عن السياسة وبدأت فئة المثقفين الأوائل في الإسلام بالظهور)**[2]. كان المثقف إذن وبناء على السرد السابق جزءً مِن السلطة، أو كانت السلطةُ جزءً منه ثم انفصلا، ومِن ثمّ فإن عودته إليها لاحقًا قد لا يُنظر إليها باعتبارها أمرًا مُستغربًا أو عجيبًا، بل كاسترجاع لوضع أصيل ومقبول.

على كل حالٍ يخبرنا التاريخ إن السلطة المُستبدة لا تنفك تصنعُ مثقفيها، فهي في حاجةٍ دائمةٍ لمن يصوغ أفكارها ويُرَوّج لها ويُدعمها بأسلوبٍ برّاق لا يستفزُ رفضَ الآخرين، وهي تبرعُ دون شك في أداء هذا الدور، ولا تكتفي بصُنع مُثقفين مُجهزين بأسلحتها، لكنها أيضًا تجتذبُ إلى مداراتِها آخرين ربما كانوا في يومٍ مِن الأيام مُعادين لها أو رافضين لأفاعيلها، وهي في بعضِ الأحيان تملكُ مِن الحِيل ما قد يفوق معارف المثقفين بوجه عام؛ ويُروى في هذا الصدد إنّ "محمد علي باشا" الذي حكم مصر ما بين 1805 إلى 1848 والذي يعتبر مؤسس الدولة المصرية الحديثة، طلب مِن "آرتين باشا" الذي كان يقرأ له كل يوم جزءً مِن كتاب (الأمير) لميكافيللي، أن يكفَّ عن القراءةِ لأنه –محمد علي باشا- يعرفُ مِن الحيلِ أكثرَ مما يَعرف مؤلفُ هذا الكتاب[3]، والمعنى الواضح هو إن السلطة ربما تملك من الحيلة والمكر ما قد لا يملكه المثقفون أنفسهم.

عن الجماعة الثقافية

من المُجحِف أن يتصور المرءُ إمكانيةَ التعميمِ واستخدامِ التعبيراتِ المُطلقةِ في مُختلفِ الأحوالِ، يصعبُ افتراض إنّ الجماعةَ الثقافيةَ هي كلٌ واحدٌ أو كيانٌ مُنسجمٌ، لكن المرءَ قد يحلو له في الوقت ذاته أن يتخيلَ وجودَ مبادئٍ مُشتركة بين أفراد هذه الجماعة، وأن ثمّة عناوينٍ كُبرى يُفترض بهؤلاء الأفراد التوافق عليها؛ كحُرّية الفكر والبحث العلمي والإبداع على سبيل المثال، بيد أن تشرذم المُثقفين الذي يظهر جليًا بين الحين والحين، وارتباكهم أمامَ مُشكلاتٍ ومَسائلٍ مُتعلقة بجوهر انتماءهم الأصيل، إنما يطرح تساؤلات مُتعددة حول وجود أرضية مشتركة فيما بينهم، وكذلك حول جواز دخولِ أعضاءِ الجماعة الثقافية في تحالفات مع السلطة أو ضدها، وحول مدى اضطرارهم إلى التراجعِ عن بعضِ القناعاتِ والمبادئِ المُتوَافق عليها بينهم، وما إذا كان مِن المُمكن قبول انضمامِهم إلى تحزّبات

---

[1] http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=116107

[2] الربيعو ,تركي, في خيارات المثقف ,بيروت, دار الكنوز الأدبية, ,1998 ط,1 ص.، في: كريم أبو حلاوة: المثقف العربي بين السلطة والمجتمع http://www.mokarabat.com/s1341.htm

[3] ناجي علوش ,مجلة" الوحدة ,"العدد 10 تموز،1985 ، ص16-17.، في: كريم أبو حلاوة: المثقف العربي بين السلطة والمجتمع

سياسية يقدّمون مِن خلالِها تنازلاتٍ تتعلقُ بحرياتهم الفكرية، في سبيل جَذب قطاعاتٍ مِن الجماهيرِ والحصول على تأييدها. إن عُزلة الجماعة الثقافية المصرية تبدو عُزلة مختارة، فبتبنيها مواقف السلطة المُستبدة المهيمنة تفقد جزءً مِن الجماهير، وبمساومتها على حريتها الفكرية أمام هجومِ الفئات الرجعية تفقد جزءً آخر، ومن ثم تقعُ في فخّ الانهزام. ويُلاحظ إن التلوّن الفكريّ الذي يشوب مواقف الجماعة الثقافية، والذي قد يظهرُ في بعض مقترحاتٍ تناقض أفكارها التي سبق وأعلنتها؛ مِن قبيل أحقية أو عدم أحقية المواطن في الممارسة السياسية الكاملة، وجاهزيته أو عدم جاهزيته لقبول أفكار عن الحُرّية، باعتباره غير مؤهل بعد لاتخاذ قرارات مسئولة، وكونه أو عدم كونه في حاجة إلى فترات مِن الإعداد والإنضاج، إنما هي أفكار تأتي على الأغلب في سياق تبرير المُثقف دعمه للإجراءات القمعية التي يتخذها الحاكم بوجه عام.

ما هو الدور المُفترض بالمثقف أداؤه ؟ ما هو المتوقع منه ؟

ثمة خلاف مُثار حول دور المُثقف المُفترض في المجتمع، هذا الخلاف قد يمثل المُنطلقَ الرئيسَ الذي يُمكن مِن خلاله بناء جدلٍ حول علاقة المثقف بالسلطة والحكّام بوجه عام، والطغاة منهم بوجه خاص. يرسم "بندا" صورة شديدة المثالية لجماعة المُثقفين حيث هم مجموعة مِن الأشخاص المُتميزين والموهوبين ذووي الأخلاق الرفيعة، المُمَثلين لضمير البشرية، والمُنادين دومًا بمعايير الحق والعدل، ويؤكد المفكر الفلسطيني المعروف "إدوارد سعيد" في كتابة الشهير (المثقف والسلطة) إن المُثقف أو المُفكر مُنحاز بطبيعته إلى صفوفِ الضعفاء، وإنه يواجه القوَّة بالحقِّ ويرفض بالتالي عقدَ مساومات مع أصحابِ السلطة، وإنه جاهز لإشهار موقفه علنًا ودون مُداره، يقول "سعيد" أيضًا؛ إن أكثر ما يشوه أداءَ المُثقف أو المُفكر في الحياة هو لجوءه إلى (الصمت حين يقتضيه الحرص)، أو إلى (الانفعالات الوطنية أو الردة و النكوص بعد حين) [4]. على النقيض يرى آخرون إن المثقف ليس بالضرورة ثوريًا وليس بالضرورة حاملا لمشعل القيم الحقوقية، ومن ثم لا يجب تحميله مسئولية الوقوف في وجه السلطة، و يُفصِح المثقف والدبلوماسي اللبناني "خالد زيادة" على سبيل المثال؛ عن إن التعبير عن ضميرِ الأمة ليس بدورِ المُثقف على الإطلاق، حيث مواجهة السلطة عملٌ تختصّ به الأحزاب السياسية لا الجماعة الثقافية، وبالتالي لا يجب انتقاد المُثقفين حين يتخلى أحدهم عن الدفاع عن قيم أساسية مثل الحرية[5]. بين هذا وذاك يظلّ المثقف العربيّ بوجه عام والمصريّ بوجه خاص كائنًا يحيط به الغموضُ في غالبية الأحوال، بل وتطاله السخريةُ في كثيرٍ مِن المُناسبات، لا يدرك عامة الناس دورًا محددًا له وربما لا يدرك هو نفسه أبعادَ هذا الدور في غمرة انشغاله بتفاصيل مزعجة، وغالبًا ما تتحمل (النخبة الثقافية) وزرَ الإخفاقِ العام، وينوء كاهلُها بعبء اللوم، فيما يتوه أفرادُها بين متاهات التنظير وإشكاليات التفاعل مع الجماهير.

يرى "تيري إيجلتون" في كتابه (فكرة الثقافة)[6] إن طرح الثقافة كحيّز بديل للدين، يتحرّرُ فيه المرء ويتصالحُ مع الجوهرِ الإنسانيّ، أمرٌ قد لا يؤتي ثماره، وإن الثقافة لأسباب متعددة قد تشرعُ في الكشفِ عن (أعراض مَرَضية) إذا ما طُلِب منها أداءُ هذا الدور. يمكن بالمثل طرح تساؤل حول جدوى دعوة المُثقف إلى الاضطلاع بدور أخلاقيّ في مواجهة طاغية، وإذا ما كانت هذه الدعوة في غير محلها، خاصة والتاريخ يعرف أعلامًا مِن المثقفين انحازوا جذريًا إلى طغاة وساروا في ركبهم . على كل حال، يبدو الامتناع عن حثّ المثقف على الوقوف أمام السلطة الجائرة أمرًا ممكنًا على مضض، شريطة التزامه الصمت والحياد، لكن ثمة أزمة تطفو على السطح وتستفحل حين لا يكتفي المثقف بالصمت، بل ينحو إلى مساندةِ السُلطة بوضوح ودون مواربة، وفي كثيرٍ مِن الأحيان يتخذ بعضُ المثقفين جانب الساسة الأقوياء المستبدين، لا جانب الساسة الذين يُبدون قدرًا مِن المرونة والاهتمام بالمعايير الأخلاقية، ويضمنون

---

[4] إدوارد سعيد: المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، صفحة 22، 58، 59، ، دار رؤية، الطبعة الأولى، 2006.

[5] خالد زيادة: مطالبة المثقفين بتغيير العالم وهم.. واعتبارهم «ضمير الأمة» سوء فهم، حوار أجراه سامح سامي مع خالد زيادة؛ السفير اللبناني في مصر، بجريدة الشروق، 29 أغسطس 2014.
http://www.shorouknews.com/news/view.aspx?cdate=29082014&id=7b08a929-d439-45ed-8749-02742c2ac7d4

خطابهم بعض النوايا المتعلقة بإنصاف المجموعات المُهمشة والضعيفة، وفي انتخابات الرئاسة الأخيرة التي أدت إلى فوز وزير الدفاع المصري بمنصب رئيس الجمهورية، أقرب نموذج يمكن الركون إليه، حيث اختار مثقفون بارزون الانحياز إلى المرشح الذي بدا أكثر قدرة على البطش والسيطرة، لا إلى المرشح الذي بدا أكثر قربًا من هموم ومشكلات المواطنين.

هناك نماذج قليلة لمثقفين مصريين انتقدوا هم أنفسهم اقترابهم مِن السلطة في مرحلة من المراحل، ورأوا في هذا الاقتراب شيئًا مِن التجاوز والتنازل عن المبادئ التي طالما آمنوا بها، وعلى الجانب الآخر هناك نماذج لمثقفين أكاديميين؛ بعضهم اتخذ مسارًا مُحافظًا وانتهى به الأمر منتميًا إلى السُلطة في أسطع صورها، ومنهم من سار محازيًا للحائط إلى أن تمكّنَ من التحقق فأفصح عن مكنوناته واضطلع بدور المثقف الأقرب إلى المثالية كما رآه كل مِن "بندا"، و"سعيد"، ومنهم أيضًا مَن مضى في طريقه مُسالمًا؛ لا انحاز إلى السلطة انحيازًا فاضحًا، ولا اتخذ مواقفًا جذرية ضدها وضعته في مَصَافِ المُناضلين. النماذجُ السابقة المُقتطعة مِن سياقها قد تغري بالحكم عليها، وقد تبدو الأحكام سهلة واضحة لكن المبحث الأكثر أهمية، هو الوقوف على ما إذا بدت تلك الاختيارات المتباينة في ذاك الوقت لأصحابها بذات السهولة والوضوح.

المثقف والطاغية: إغراءات وقيود

تركت لأفكاري العنان فيما يتعلقُ بالبحث عن الدوافع وراء انجذاب المثقف إلى الطاغية المُستبدّ والعكس، وقد وجدت بكثير مِن الحياء وبعضٍ مِن الشطط إن ثمة تشابهات بين الطرفين؛ جزءٌ مِن المُثقف والمُبدع يميلُ إلى الفردية والالتصاقِ بالذات وكذلك يبدو الطاغية، وفي باطنِ المثقف والمبُدع صوت أَصيل يخبره بإنه مُمتلكٌ لما لا يمتلكه الآخرون مِن تفوق عقليّ، وكذلك هو الطاغية، وقد يكون كلاهما على حقٍّ ولو بنسبة ما. لا ينكرُ أحدٌ إن الذكيّ قد ينجذب إلى الذكيّ بدافعٍ مِن المُتعة العقلية الخالصة، كذلك يدرك المُثقف والطاغية كلاهما حاجة أحدهما في لحظة حرجة إلى الآخر، يعرفُ الطاغية قدرات المثقف ويعلم آفاق طموحاته، ويفهم المثقف ما يريد الطاغية ويُدرك مِقدار شره ولا محدودية انتقامه. يغازل أحدهما الآخر حتى يأمن جانبه، وينال مميزاته ويوظف إمكاناته لصالحه.
أحيانًا ما يرى المُثقف في قربه مِن الطاغية والسلطة بوجه عام وسيلة مناسبة لتحققه، وطريقًا مُعَبدًا للحصول على التقدير الملائم لقيمته التي يفترضها والتي يتأهب دومًا للدفاع عنها، وهو أيضًا يُدرِك إن معاداته للسلطة قد تعني حِرمانه مِن أشياء كثيرة؛ المَنصِب، الجوائز، التكريم، الحضور الإعلاميّ الدائم، وربما تلقي به في غياهب النسيان.
هناك أسباب أكثر مثالية وأقل دناءة مِن الانجذاب العاطفيّ الأصيل بين الطاغية والمثقف؛ الصادر عن تشاركهما نظرة فوقية مُتعالية إلى مَن هم أقل إبداعًا ومعرفة، فقد يرى الأخير في قُربه مِن الطاغية الوسيلة الفاعلة وربما الوحيدة لتطبيق رؤيته، ولتحقيق فائدة ما للآخرين، وتحسين أوضاعهم، ونشر المعرفة بينهم، واتخاذ بعض التدبيرات التي تحفظ حقوقهم، وقد يتمادى المثقف في التقرُّب مِن الطاغية طمعًا في تحقيق هدفه، لكنه بهذا الاقتراب المُطّرِد قد لا يتمكن مِن العودة إلى سيرته الأولى، فالطريق يصبح في العادة ذا اتجاه واحد، ذهاب بلا رجعة.

ختام؛

يبدو إن ثمة خوف قديم وراسخ ينبعث في وجدان المثقف المصري على الفور حال شعوره بغياب وجه السلطة المهيمنة عن حياته، ولا ينبغي أن ننسى إنه في الوقت الذي يطالب فيه بعض أعضاء الجماعة الثقافية المصرية بإلغاء وزارة الثقافة ككيان سلطوي، ويعلنون وجوب دعم استقلال المؤسسات الثقافية، ويشجبون تدخل الدولة بالحجب أو المنع، فإن البيانات الختاميّة لمؤتمراتهم غالبًا ما تأتي خالية مِن هذا المطلب، بل وأحيانًا ما تحث الدولة على ممارسة دور أكبر على جميع المستويات. ربما لا يتعلق هذا الأمر مباشرة بفكرة الانجذاب إلى مدار الطاغية، بقدر ما هو تمسك بالبقاء تحت سلطة أبوية مسيطرة تملك المَنح والمَنع، وبقدر ما هو غياب لرؤية متماسكة حول مستقبل الثقافة دون هيمنة ودون استبداد. يبقى إذن عديد المثقفين المصريين عالقين داخل مدارات الطغيان، في انتظار هزة كبرى تدفع بهم خارجها.